عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (4221) السنة الخامسة عشرة -
الخميس (28) حزيران 2018
WWW. almadasupplements.com

بسّام الوردي

4
بسام الوردي: أردت لجمهور السينما ان يكون فاعلاً

بسّام الوردي.. حصار الموهبة

علي حسين

عنيد وصارم صفتان لازمتا بسّام الوردي طوال حياته.العنادُ في مواجهة الساعين الى تقديم أعمال تلفزيونية ساذجة ومهلهلة، والصرامة في الاختيار سواء على مستوى النص أو الممثلين أو الكادر الفني الذي يعمل برفقته، وهذه الصرامة والعناد هما اللذان أنتجا عدداً من الأفلام القصيرة والتمثيليات ومسلسلات تعد على أصابع اليد حفرت في ذهن متفرج مثلي انطباعات كالوشم لاتُمحى.

كانت المرة الأولى التي تعرفت فيها على إبداعات بسّام الوردي، حيث شاهدت فيلمه القصير والجميل (حكايات للمدى) فأحسست أن وراء هذه الكاميرا مخرج يعزف على أوتار قلبه..

ففي أربع وعشرين دقيقة من الزمن، استطاع فيها هذا الفنان أن يمزج بين عدة فنون في طريقة لم يسبقه الكثيرون إليها مقدماً لنا مزيجاً من حكاية النحّات يحيى جواد مع قصائد رياض قاسم في مزج جديد بين الشعر والصورة ليكشف لنا عن قدرة بارعة في المزج بين التأثيرات البصرية للكاميرا وبين عناصر أدبية تذهب الى اللفظ والجملة مما يجعلنا نشعر بأن هذا المخرج قادر على ترجمة فيلمه الى نص أدبي جميل.

وإنه يمتلك في الوقت ذاته عيناً وروحاً فنانة لها القدرة على النفاذ والاختراق الى أعماق وأحاسيس إنسانية متشابكة ومعقدة وإخضاعها لمقتضيات العمل الفني الذي تنظمه هذه الرؤية التي جمعت في آن واحد بين متطلبات العمل السينمائي وإيقاعات القصيدة وجماليات الفن التشكيلي وسحر الموسيقى لتصدر عن رؤية فنية واحدة وعبر تيار وعي واحد وتتلامس وتتقاطع مع رؤى وأفكار المتلقين في لحظة واحدة وبطريقة واحدة وربما بأثر واحد، بحيث يمكن أن تحل الكلمة مكان الصورة أو تحل الصورة مكان الكلمة تعبيراً صافياً عن علاقة تبادلية شعورية في التعامل مع المحيط، ولأن الايقاع في (حكايات للمدى)عنصر أساس داخل العمل، فقد كان طبيعياً أن تنشأ الصلة مع الشعر بالذات بأوضح من الصلة مع أي فرع آخر من فروع الفنون، لأن الإيقاع في هذا الفيلم اتسم بالتنوع بمعنى المزج والتداخل بين إيقاعات مختلفة داخل وحدة تتمثل في إطار واحد كانت فيه قصائد رياض قاسم تعمد الى خلق إيقاعات منتظمة تشيع منها وتذيع إيقاعات شديدة الشبه بإيقاعات بسّام الوردي.

بدأ بسّام الوردي حياته الفنية مخرجاً حين انتمى الى الفرقة القومية للتمثيل في بداية تأسيسها ليقدّم لها أول أعماله المسرحية، مسرحية "الصليب" التي فازت بأفضل إخراج لموسم ٧٠-٧١ ليتحول بعدها الى محبوبته السينما، فيقدّم عدداً من الأفلام الوثائقية والقصيرة ليجرب حظه مع التلفزيون لتفوز إحدى سهراته التلفزيونية (الامتحان) بجائزة أفضل تمثيلية في أحد المهرجانات التي كانت تُقام في بغداد في السبعينيات.. وكان حُلم بسّام الوردي أن يقدّم فيلماً روائياً طويلاً، ولم يتحقق هذا الحُلم إلا بعد أكثر من عقدين من الزمن، حيث أسندت إليه دائرة السينما والمسرح إخراج فيلم "ليلة السفر" الذي كان حظه عاثراً مثل حظه مخرجاً، حين مُنع من العرض في صالات السينما بسبب اعتراضات رقابية، في المقابل لم تتسنَ لأحلام بسّام الوردي في تقديم أعمال تلفزيونية كبيرة إن تحقق من خلال المؤسسة الرسمية ودائرة الإذاعة والتلفزيون، إذ كان المسؤولون عن هذه المؤسسة ينظرون الى مشاريع هذا الرجل الحالم بكونها مشاكسة للواقع ومحاولة لبث أسئلة لم يكن الوقت يسمح بطرحها أو مناقشتها.. إلا أن الفرصة جاءت في منتصف التسعينيات، ليقدّم بسّام الوردي مسلسله الاجتماعي (بيت العنكبوت).

الفقر... الرقم الاجتماعي الصعب كان خلفية وأرضية لهذا المسلسل التلفزيوني، وقد صاغه عبد الوهاب عبد الرحمن ببراعة كبيرة مؤلفاً وقف مع بسّام الوردي ليقدّما لوحة في وصف المجتمع العراقي وكانت عبقرية بسّام الوردي في قدرته على الاحتفاظ بلوحة الفقر والقهر في خلفية المسلسل من دون الانزلاق الى الخطابية والتقريرية والمباشرة. فكان القهر والعوز حاضرين في كل لحظة في سلوك شخصيات المسلسل.

من بين عشرات النقاط التي يمكن أن أتناولها عن هذا المسلسل، سأركّز على نقطتين اعتقد أنهما مهمتان لفهم طبيعة عمل بسّام الوردي.

النقطة الأولى: هي أن اختيار هذا المخرج لطريقة (التراكيب) في الانتقال من مشهد الى مشهد (واعني به التداخل بين المشهدين الذي يستمر لفترة قصيرة جداً) وفي كثير من الأحيان كانت تكملة الجملة / الحوار التي ينطق بها أحد الممثلين تستمر أثناء الانتقال من كادر الى كادر، واختبار هذا الأسلوب يضعنا أمام مخرج مفكّر، فهو لم يلجأ إليه لأسباب جمالية صرفة، لكنه استخدمه كسمة أساسية لحياة البشر الذين يرزحون تحت نير القهر والعوز، فهي حياة تبدو غير متحركة وإن المعاناة تتراكم طبقة فوق طبقة، ثم أن هذا الأسلوب مكّن بسّام الوردي من أن يخترع لنا نسقاً إبداعياً جديداً ولافتاً ألا وهو الجملة الناقصة، وهي جملة منطوقة أو مرئية يراها المخرج من الزوائد فيحذفها ليترك للمشاهد أن يكمل من موقعه هذه الجملة في عملية تجمع الفنان والمشاهد في لحظة صدق واحدة.

النقطة الثانية: فهي سيطرة هذا المخرج على أداء الممثلين وهم من الممثلين الكبار، إذ ظهر بعضهم بصورة غير تلك التي عهدناها، فهكذا كان مقداد عبد الرضا وغزوى الخالدي في "ليلة سفر"، هكذا كان خليل شوقي وأفراح عباس في "بيت العنكبوت" وهكذا شاهدنا مجموعات من الممثلين الشباب الذين عملوا معه في مسلسل "الصدى والصهيل". فقد أوحى لهم بسّام الوردي بطرائق تعبير جديدة وهذه الطرائق اثبتت أن بسّام الوردي صاحب رؤية فنية خاصة امتزجت فيها السيطرة المذهلة على إيقاع العمل والشاعرية الكاملة للكاميرا وتصدير الاحساس للمشاهد بأنه جزء لايتجزأ من العمل الفني.

كان بسّام الوردي المخرج والفنان مدركاً للمصاعب التي تواجه العمل الفني ويعرف أن ما ينقصنا الكثير، وأذكر أنني سألته مرة عما ينقصه لكي يقدّم دراما عراقية متطورة، فقد فجر هذا السؤال الكثير من الغضب والاستفزاز في نفسه، فخرج عن نبرته الهادئة ليقول لي في حماس صادق: (ينقصنا الثقافة والوعي وينقصنا أيضاً القدرة على الاختيار والرفض والقبول، ينقصنا أن نكون متعلمين وينقصنا أن نفكّر بشكل عصري ومنطقي وينقصنا نظام إداري مثقف وتنقصنا الحرية التي من خلالها نستطيع أن نقول مانريد.. تقديم الأعمال الفنية الجيدة لايتم من خلال إنتاج أفلام ومسلسلات هنا وهناك، بل من خلال بناء قاعدة صحيحة تبدأ بالتعليم والإعلام.. لكن السؤال الأهم الذي يجب أن نطرحه كيف يتحقق كل هذا وسط صورة قاتمة لواقع ثقافي يسيطر عليه أنصاف الأميين).

بسّام الوردي نموذج صارخ لحصار الموهبة لقد كان مثل قتيل يمشي على الأرض، قد يحصل على نصف فرصة بعد نضال عنيد فتجيء رؤيته شهادة عالية الأهمية رؤية لفنان عاش الحياة بأكثر مما نعيشها وحلم بالعادي، وهو يدرك بأنه مستحيل. مات بسّام الوردي وهو يشير إلينا بأصابع الاتهام الى النكران وحصار الموهبة واغتيال التفوق.

بسام الوردي مع الفنان فيصل لعيبي

وداعاً بسّام: الرحيل الوردي

فراس عبد المجيد

حين يرتحل بسّام الوردي، فإن رحيله يكون مختلفاً، فهو ليس كأيّ رحيل. بل هو رحيل الشمس الى مغيبها، ورحيل الورد الى عطره، ورحيل السيف الى غمده :

«منجرداً كالسيف أتيت

لا يبكي السيف، ولكني في الغمد بكيت"

هذا هو بسّام الذي حمل إلينا التلفاز خبر رحيله عام ٢٠٠٧ عن ٦٥ عاماً، كانت أيامه الأخيرة صراعاً مريراً مع المرض، وانتصاراً عليه. فالجسد المسجّى لابد أن يتمرد على العلّة المستعصية، ويرتحل نحو الشمس. ها هو يستعصي على الغمد، وينطلق نحو الذاكرة ونحو الخلود. ها هو يأتي "منجرداً" في وجه القبح والضغينة والظلام.

بسّام لم يكن مخرجاً سينمائياً فحسب، كما جاء في النعي الذي بثته أكثر من قناة فضائية عراقية، بل كان شاعراً وإنساناً وعاشقاً. وكان مناضلاً صلباً في وجه الفاشية:

«"ها يالفارق بدمك

دشدّ تراب قبرك وأرفع الراية"

وحين تحول القاف الى جيم معطشة، كما في الدارجة العراقية، فإن هذا المقطع من الشعر الشعبي العراقي يكون صرخة تؤرّخ للنضال ضد الفاشية التي أغرقت البلاد بالدم في انقلاب ١٩٦٣ الأسود، ما زال صداها يتردد الى الآن، وأرض العراق ما زالت تحتضن كل يوم كوكبة من الشهداء، ضحايا الغدر والدكتاتورية البغيضة وقوى الظلام.

دعوني اعترف: ارتبطت ببسّام الوردي في علاقة نَسَب، إلا أني وجدت فيه، منذ أواسط ستينات القرن الماضي، صديقاً ورفيقاً بدّد ما كان عالقاً أو شبه عالق في ذهني من ترسبات ذات منحى يساري غائم ومشوّه. عندها أدركت أن الشمس حمراء، ليس في مغيبها فحسب، بل حتى حين تتوارى خلف المدى. المدى الذي طالما تاق إليه بسّام، وأبدع له فيلماً عن الفنان والقاص يحيى جواد. المدى الذي حلّقت فيه، وتحت ظلاله، طيور الفنان العراقي الخالد أرداش كاكافيان، في فيلم وثائقي جميل لم يكتب له أن يشهد النور. وهذه حكاية لم يتضمنها خبر النعي. ففي زيارة له الى بغداد، في النصف الأول من سبعينات القرن الماضي، زار بغداد الفنان أرداش كاكافيان، بعد اغتراب طويل في فرنسا، فلمعت في بال بسّام فكرة انتاج فيلم عن هذا الفنان لمصلحة المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون والسينما. وفعلاً جندت الإمكانات لهذا الانتاج، ووضع بسّام السيناريو، وباشر في اخراج الفيلم. إلا أن المتغيرات في أجهزة اعلام السلطة وقتها، والحقد الأعمى، أجهض هذا المشروع الفني الكبير.

ماذا يمكن أن أزيد؟ الذاكرة محمّلة بكل ما هو جميل ووردي عن بسّام. هل أسترجع بهاء وكبرياء هور الجبايش ونخيل أبي الخصيب، حين شددنا معاً الرحال الى جنوب العراق، في رحلة لإعادة اكتشاف الوطن والذات والحقيقة؟ الوطن الذي كان يئن ويتطلع عبثاً الى مستقبل أفضل.. يومها كانت الشاحنات تأتي من كردستان محمّلة بأبطال ومناضلي الكرد "اليشمه ركه" في أوسع عملية تهجير الى الجنوب، حيث كانت المقابر الجماعية في انتظارهم، بعد اتفاقية الجزائر التي وقعها الدكتاتور مع شاه ايران، وعاد فمزقها، ثم عاد وألصق قصاصاتها المتطايرة. وبين التوقيع والتمزيق والإعادة سالت جداول من دم لا يزال ينزّف. نعم. شاهدنا الشاحنات المحمّلة، لكننا لم نشاهد المقابر الجماعية إلا بعد حين.

هل استرجع القسم الثقافي في تلفزيون بغداد في السبعينيات؟ الذي كان يرأسه الناقد محمد مبارك (وقد رحل عنّا قبل أيام)، حيث كان بسّام الوردي مخرجاً أنجز العديد من المشاريع الثقافية والفنية المهمة، بمشاركة العديد من الفنانين والمبدعين والأدباء التقدميين، وكان من بينهم الشاعر حميد الخاقاني والمخرج المصري حسين حامد وآخرون. ومن بين تلك المشاريع البرنامج الثقافي "البرنامج الثاني" الذي كان يقدّمه الشاعر صادق الصائغ ويخرجه بسّام الوردي، والذي كان يعنى بالثقافة التقدمية والانسانية الرفيعة، وكان أن تعرض الى تبرم ومضايقات القيادة الدكتاتورية المتخلفة، بل وأحمد حسن البكر شخصياً، فأجهض هذا المشروع التنويري الواعد.

أم هل استحضر فرقة مسرح اليوم التي كان بسّام الوردي من مؤسسيها، الى جانب الفنان الراحل جعفر علي وقاسم حول ومنذر حلمي وعلي فوزي وآخرين؟ حيث كانت هذه الفرقة تشكّل الى جانب جارتها في «عمارة الأخوان" بشارع السعدون، فرقة المسرح الشعبي، دعامة راسخة للمسرح التقدمي الجاد.

لنتأمل بعضاً من عناوين أفلام ومسرحيات وقصائد بسّام الوردي: فيلم "ليلة سفر" الذي تعرض للمنع طويلاً.. وحصد جوائز مهمة. فيلم حكاية للمدى.. مسرحية الصليب. ومن قصائده "مرثية الى رشدي العامل" و"المفاتيح الأسئلة" وغيرها مما لم تجمع في ديوان شعري حسب علمي.

الرحيل الوردي لبسّام ليس دعوة للحزن والبكاء. وإن كانت الدموع قد رسمت خريطة هذه الكلمات ومسارها. هذا الرحيل، وهذه الكلمات دعوة الى الجميع لجمع تراث هذا الفنان الشامل والمناضل والمبدع، في الشعر (الشعبي والفصيح) وفي المسرح والسينما، واشاعته بين الناس أمثولة للالتزام بقضاياهم، وارتقاءً بوعيهم الجمالي والإنساني الشامل.

عن بسّام الوردي الذي نسيناه

بسّام الوردي

عدنان منشد

الكثير من الفنانين، يختلف على بسّام الوردي. فمنهم من كان يقول: إنه فنان، ومنهم من كان يقول: إنه شاعر، فانتظرنا طويلاً حتى اتسع مفهوما الشعر والفن، وحتى أنبهر بهما الناس، فإذا هو لا شاعر ولا فنان، على الرغم من شواغله المتعددة في المسرح \ والسينما والتلفزيون.

تخرّج بسّام الوردي منذ وقت مبكر من أكاديمية الفنون الجميلة، وتنقّل بين الفرق المسرحية المعروفة، كالمسرح الفني الحديث والشعبي واليوم حتى استوطن في الفرقة الأخيرة، كأحد المؤسسين أو الروّاد فيها، جنباً إلى أسمائها المعروفة، امثال: جعفر علي، نور الدين فارس، أحمد فياض المفرجي، مكي البدري، علي فوزي، قاسم حول وآخرين..

من يعرف هذا الفنان عن قرب، سيجد الرقة والشمائل العراقية المبثوثة في السلوك والحديث والتوجه.. هادئ الطبع، حصيف الرأي، وكفاءته عالية بلا إعلان أو إدعاء. كتب وأخرج الكثير من الفنون الدرامية المرئية في القسم الثقافي بتلفزيون بغداد، لكنه، مع كل هذه الصفات الأليفة المحبّبة، فهو من طراز النساك أو الزاهدين.. إنه مجامل وقنوع بالقليل القليل مما يقدّم له على الصعيدين الشخصي والعام.. وهكذا، ظل هذا الفنان راضياً بما يقدّم له من امكانات تقنية أو فنية أو مادية.. وهذا ما جعل منه في دائرة الظل لفترة طويلة، دون أن يطالب يوماً بأن يكون في مركزها، أو يقف تحت أضوائها المشعشعة الكاذبة.

نقول هذا الأمر، بعد رحيل بسّام الوردي منذ أعوام طوال عن فنّه وأصحابه ومريديه.

ما أحوجنا اليوم لدعوة هذا الفنان الشريف العفيف للولوج إلى شواغلنا وإنهماكاتنا الفنية الحالية، بعد سنوات من الاضطهاد والتغييب والعزلة.. بل، ما أحوجنا الآن، الى أن تكون ذكرى بسّام الوردي في صدارة مشهدنا الفني بطريقة مناسبة وبحجم مناسب.

في صفحة كتبها ضمن سـيرة حياته يقول الفنان بسّـام الـوردي: «لو أن اكاديمية الفنـون الجميلة لم تسـتحدث في العام الدراسي ١٩٦٠ – ١٩٦١ لكان بسّـام الوردي (١٩٤٣) قد واصل دراسـته في فرع علوم الأحياء في كلية التربية في جامعة بغداد، الـذي كان قد دخله بعد تخرجـه في الفرع العلمي من ثانويـة الكاظمية». وأضاف: «إلا أن الإعلان عن افتتاح الاكاديمية أغراه بالدخول إليها والتخرج في فرع السـينما ضمن دورته الأولى"ليجد نفسـه، بعد ذلك، يعمل مع أسـماء لها حضورها الفني، من بينهم المخرج عمانوئيل رسـام، والممثل راسم الجميلي. ثم انتسب إلى الفرقة القوميـة للتمثيل ليصبح عضواً فيها منذ العـام ١٩٦٨. وابتداءً من العام ١٩٧١ اصبح مخرجاً في المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون، حيث أخرج عدداً كبيراً من البرامج ذات الطابـع الثقافي، فضلاً عن قيامه بإخراج عدد من التمثيليات التي فازت إحداها (الامتحـان) بجائزة أحسـن إخـراج في المهرجان الثالث لأفلام وبرامج فلسـطين. بعدهـا أنجز الوردي عدداً من الأفلام الوثائقية عن فنانين تشـكيليين عراقيين، من بينهـم: عطا صبري، ومحمـد غني، وخالد الرحـال. أما في مجـال الفيلم الروائي فيلم واحد، هو «ليلة سـفر"الذي مثّل الأدوار الرئيسـة فيه عـدد من أبرز الفنانين العراقيين، بينهم الفنان الكبير يوسـف العـاني. بعده لم تتح له «الظروف العامة» التي مرّ بها العراق، ومنها الحصار، أن يواصل مسـيرته التي كان يأمل مواصلتها في إخراج أفلام روائية أخرى.

علّمهُ همنغواي أنَّ الإنسان قد يُحطّم لكنهُ لا يُهزم

بسـام الوردي: أردت لجمهور السـينما ان يكون فاعلاً

× بداية.. هـل هنـاك اليوم إمكانـات فعلّية لقيام سينما عراقية؟

– لا لمثل هـذه الإمكانات، لسبب بسيط هو أن السينمـا بصفتها فنّـاً، تقوم علـى ركائز عدّة أهمها: الركيـزة التكنولوجية التي هي اليوم في تطور مستمر. ثم الركيزة الاقتصادية، في جانبي التمويل والاستثمار، باعتبار السينما تمثـل مشروعـاً فنيـاً – ربحيـاً. والركيـزة الثالثـة قائمة على كون السينمـا فنّاً جماعياً، لكنه يحمـل هويـة "ذات"واحدة هـي «الذات الفنية للمخـرج»، أو المخرج – المؤلف. وهذه لا تأتـي عفواً، أو بفعـل إرادي، وإنما تتشكل مـن خـلال التراكـم، وبعمليـة تـدرج: تراكم الخبرة، ورأس المال، وتوالد الأجيال. ونحن لا نمتلك هذا.

× لماذا؟ ما أسباب هذا الغياب لعوامل النجاح؟

– لأن السينمـا العراقيـة في خـلال أكـثر من خمسين عاماً لم تنتج سوى مئة فيلم، أخرجها خمسـون مخرجـاً – أي أن المعـدل الحسابـي هو فيلمـان لكل مخرج على امتـداد هذا المدى الزمنـي غـير القصير. وهـذا أبـرز سبب من أسبـاب إعاقـة قيام سينما عراقيـة ذات هوية واضحة، ولها مسار على طريق التطور.

× وأنت شخصياً في أيّ ظروف عملت؟

– بالنسـبة إليّ كان الفيلـم الروائـي، اليتيـم هـو: «ليلة سفر»، وكنتُ قد تأخرتُ في خوض تجربتـه لأن العمـل السينمائـي كان متعـثراً ومشتتـاً، فضلاً عـن أن انتاج فيلم روائي كان حكـراً على «مؤسسـة الدولة"وعلى مخرجين بذاتهـم. أما القطاع الخاص فإنه غامر، إلا أنه فشل كمستثمر في هذا القطاع الانتاجي، وإن كان قـد حقق نجاحـاً في بعض الأفـلام الذي أنتج.

× فيلمـك «ليلـة سـفر"كان، هـو الآخـر، مـن انتاج"مؤسسة الدولة»؟

– مـع أن الموازنـة التـي خصصـت لهـذا الفيلم كانت هزيلة، عملت بجهد سينمائي حرصت فيه على أن تكون «لغة السينما» حاضرة في العمل: في تكوين المشاهـد، وفي الطريقة التي اتخذت والأسـلوب الفنـي الذي اعتمـدت في الإخراج. استخدمـت اللغة السينمائية، كمـا استوعبتها، للتعبـير عـن فكرة، كانـت جوهريـة في الفيلم، وهـي: اشـراك المتلقـي– المشاهـد في تكويـن انطبـاع جمـالي وفكـري عـن المضمـون الـذي يسعى الفيلم الى إيصاله. أي أنني أريد لمشاهد فيلمي هذا أن يكـون «فاعلاً» وليس «منفعلاً» به فقط. لذلك حظي هذا الفيلم باهتمام النقاد.

× وما الأسلوب الذي اعتمدته لتحقيق ذلك؟

– إلى جانب ما سبقت الاشارة إليه، عمدتُ إلى أن أبـثّ فيـه «روحيـة الشعـر»، وليـس الشعر نفسـه، اعتمـدت الإيحـاء والتوريـة، وظـلال المعـاني... مـا وراء الكلمـات، وكل مـا يتصـل بروح الشعر.

× ألا تجد نفسك، في هذا، قدّمت «فيلماً نخبوياً»؟

– حينمـا قلـت إننـي أردت لمشاهـد الفيلـم أن يكـون «فاعـلاً» لا «منفعلاً» كنـتُ أقصد تواصل هـذا المشاهد مـع الفكرة الاساسيـة فيه. و«ليلة سفـر"لم يكـن «فيلمـاً نخبويـاً» علـى الاطلاق، كل الـذي فعلتـه فيـه هـو أننـي حاولـت خلـق نـوع مـن الموازنة بـين كـون الفيلـم – شئنا أم أبينـا– «سلعة"يجـب أن تجـد سوقهـا، وتعود علـى منتجها بمـردود ربحي، وبين كونـه «فنّاً» لـه مستـواه. ولكـن مع ذلك فـان هـذا الفيلم لم يعرضـ على نطاق واسع في العراق، لمحدودية عـدد دور العرض السينمائـي– وان كان هناك سببـان آخـران، ظاهـري وحقيقـي. السبـب الظاهـري هـو إن إحـدى الممثـلات في الفيلم كانـت قد غـادرت العـراق بعـد اتمـام العمل، ملتحقـة بالمعارضة العراقيـة في الخارج. أما السبـب الحقيقي فهو – بحسـب تقديري – أن الفيلم بلغته السينمائية التي اعتمدتها فيه كان أن وضع عديد الأفلام العراقية، المكلفة انتاجاً إلى حدّ البذخ، على المحك... مقارنة بفيلم أنتج بموازنة هزيلة.

× ولماذا لم تواصل عملك في مثل هذا السياق من العمل؟

– بعـد هـذا الفيلـم لم تنتـج «دائـرة السينمـا والمسرح"سـوى فيلم واحد هـو «الملك غازي» الذي أخرجه الفنان محمد شكري جميل، وكان انتاجه تم بتوجيه مـن جهات عليا في الدولة. فالتوقـف لم يكـن فردياً، وإنمـا كان توقفـاً جماعياً بفعل الظروف القاسية التي عشناها.

×وماذا عـن أفلامك التسـجيلية – التـي لك فيها إنتاج كبير نسبياً؟

– انجـازي في مستـوى الفيلـم التسجيلـي لا بأسـ به من حيـث الكم، كما أنـه انطوى على منجـز نوعـي، كما أعتقـد. ولعلّ أهـم أفلامي التسجيلية هـو «حكايـة للمدى"الذي تناولت فيه حياة وأعمال الفنان العراقي يحيى جواد، بأسـلوب وظفت فيـه أعمالـه النحتيـة لمقولة أشمل، هي مقولـة «همنغواي»: "إنك تستطيع أن تحطم الانسان... ولكنك لن تهزمه».

×وهـل تـرى أن العمـل السـينمائي في العـراق يمكن أن يُسـتأنف على أسـس جديـدة، وبوتائر أكبر وأشمل وأوسع؟

– مـا نحتاجه، أولاً، هو رأس المال اللازم لمثل هذا الإنتاج، تشجيع رأس المال على التوجه إلى مثـل هذا القطاع الاستثماري – والذي لا اعتقـده متيسـراً الآن بشكلٍ مرضٍ. فإذا ما علمنـا أن الاستثمـار في هـذا المجـال بطيء الربـح، وجدنـا أن «مـن يملكـون» يبحثـون اليـوم عـن الربـح السريـع، ذلـك أن همهـم مـالي، وليس ثقافيـاً – أمـا أن تتبنى الدولة مثـل هـذا العمـل، لأسـباب فنيـة وتربويـة وأخلاقيـة وسياسية وذلك بدعـم رأس المال الخـاص، فـإن ذلـك – إذا مـا تم – قـد يفتح أمام السينمائيـين العراقيين باباً – وان كان سيظل موارباً، كما أعتقد.

×والعنصر البشري؟

– إن التوقـف الـذي حصـل في العمـل في مجـالات السينمـا في السنـوات الأخـيرة، وهجرة عديد الفنانين، والتآكل، وعدم توالد أجيال جديدة... كل ذلك أدى إلى افقار الحياة السينمائية العراقيـة من عنصرها البشري. ولكـن، هنـاك أشخاص درسـوا في الخارج واكتسبـوا خـبرات جديدة، وهـم لا يزالون هناك... فإذا مـا شاركت الخبرات الموجودة في الداخل، قد تحقق بعض التعويض.

× وما الفيلم الذي تحلم بإخراجه؟

– أجمـل القصائـد هـي تلـك التـي لم تكتـب بعـد. وأجمـل الأفلام هـو مـا لم أنتجه بعد. أنا أحلم بفيلم معاصـر جداً، فيه كل ما نحلم به، ونفكر، ونعـاني. فيلم معقد تكنولوجياً، وبسيط وجدانياً – وقد لا يتحقق!

نشر هذا الحوار عام ٢٠٠٦
قبل رحيل الوردي بعام

المخـرج بسّـام الـوردي: "وثيقـة" الصورة السينمائيّة أم شاعريتها؟

في رحيله عام ٢٠٠٧، طويت صفحة المخرج السينمائي بسّام الوردي أشهر مخرجي الأفلام الوثائقية ومخرج أحد أكثر الأفلام جدلاً في العراق والذي منع عرضه منذ أكثر من ٢٥ عاماً.

وكان فيلم الوردي الروائي"ليلة سـفر"١٩٩٠ قد أثار جدلاً كبيراً عندما رفضت المؤسسة الثقافية إبان فـترة النظام السـابق عرضه كون الممثلة العراقية غزوة الخالدي التـي أدّت فيه دور البطولة، قد التحقت بالمعارضة العراقية في الخارج.

ولد الوردي في عام ١٩٤٣ في منطقة الكاظمية شـمالي العاصمة بغداد، وبسبب ولعه في السينما، ترك دراسـة علوم الأحيـاء في جامعة بغداد لينضم إلى معهد الفنون الجميلة فرع السـينما عام ١٩٦١.

علـي عـبـد الأمـيـر

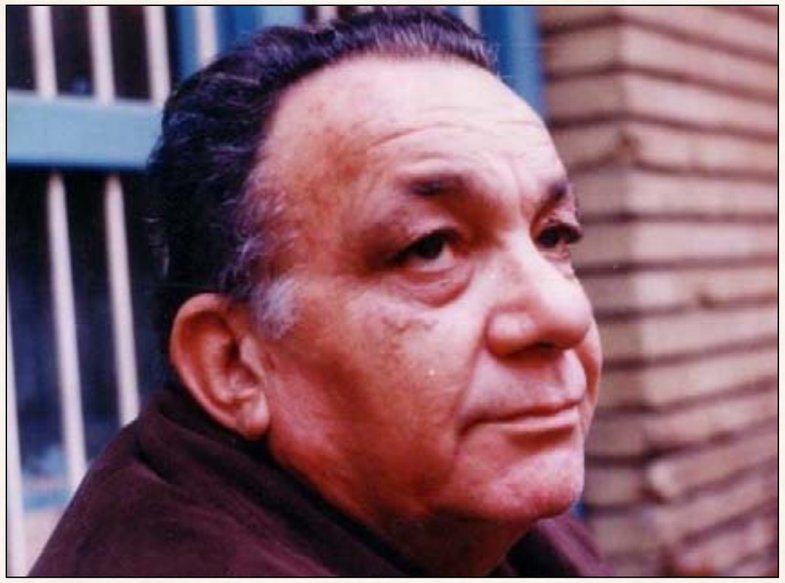

صحيح إنّ أفلامه الوثائقية بدت"ثقافية"محض، فهي تتناول السـير الحياتية والفنية لتشكيليين عراقيـين بارزيـن منهـم: النحـات محمـد غنـي حكمـت، الرسـام عطا صـبري، والنحّـات خالد الرحـال، إلا إنها توصف كقطع سينمائية صافية لما فيها من نقاء رؤية وإخراج حاذق.

وهـذا مـا تحقـق في أهـم أعمالـه السينمائيـة الوثائقيـة، فيلم"حكايـة للمدى"الـذي تنـاول فيـه سـيرة حيـاة الفنـان والقاص العراقـي يحيى جـواد، ونال عنه العديـد من الجوائز في المهرجانـات السينمائية واعتبر الأهم في تاريخ السينما الوثائقية في العراق.

«أغنية لشمس الصباح»، "حكاية للمدى"عنوانان يكشفان موقعاً شعرياً بارزاً في التكوين الثقافي لبسّام الوردي، وهو أمر يكاد يكون طبيعياً لجيل ستينـات القـرن الماضـي، في الثقافـة العراقيـة ومنه الوردي، فهو جيل الغضب والنبرة الحالمة في آن.

وفي حوار مع الوردي جاء على هامش"مهرجان الفيلـم القصير"الـذي أقامته"جمعيـة الفنـون البصريـة"في بغـداد مناسبـة ونشـر في صحيفة"الحياة"خريف العام ٢٠٠٥، كان الرجل ينظـر إلى عملـه في حقـل السينمـا في العراق، علـى إنه"عمل بجهـد سينمائي حرص فيه على أن تكـون لغـة السينمـا حاضـرة في العمل: في تكويـن المشاهـد، وفي الطريقـة التـي اتخذت، والأسلوب الذي اعتمـدت في الإخراج»، معتبراً فيلمه"حكاية للمدى"من أهم أفلامه التسجيلية، إذ"تناولـت فيـه أعمـال الفنـان العراقـي يحيى جـواد بأسلوب وظّفت فيه أعماله النحتية لمقولة أشمـل هي مقولـة همنغواي: "إنـك تستطيع أن تحطم الإنسان.. ولكن لن تهزمه».

وعن تجربة إخراجه الفيلم الروائي"ليلة سفر»، يؤكـد الـوردي أنـه عمـل فيـه بجهـد سينمائي حرص معه"علـى أن تكـون لغـة السينمـا حاضـرة في العمـل»، موضحـاً إنـه استخـدم اللغـة السينمائيـة كمـا استوعبهـا للتعبـير عن فكـرة جوهريـة أكد عليـه في فيلمه هـذا»، وهي إشـراك المتلقـي – المشاهـد في تكويـن انطبـاع جمالي وفكري عـن المضمون الذي يسعى الفيلم لإيصالـه، أي أنـني أردت لمشاهـد فيلمي هذا أن يكون"فاعلاً"لا"منفعلاً"فقـط. وأعتقـد بأن هذا هو ما جعله يحظى باهتمام النقاد».

ومع إن الـوردي يؤكد على"روحيـة الشعر"في فيلمه:"ليس الشعـر نفسه... اعتمـدت الإيحاء والتوريـة، وظلال المعاني... مـا وراء الكلمات، وكل ما يتصل بروح الشعر»، إلا إنه يرفض اعتبار "ليلة سفر" فيلماً نخبوياً: "حين قلت إنني أردت من مشاهد الفيلم أن يكون"فاعلاً"لا"منفعلاً"كنتُ أقصد تواصل هذا المشاهد مع الفكرة الأساسية فيـه. و«ليلـة سفـر"لم يكن"فيلمـاً نخبويـاً"على الإطـلاق، كل الـذي فعلتـه فيه هو أنـني حاولت خلق نـوع من الموازنـة بين كون الفيلـم – شئنا أم أبينـا –«سلعة"يجـب أن تجد سوقـاً، وتعود بمردود ربحـي... وبين كونه"فنّاً"لـه مستواه. ولكـن مـع ذلك، فـإن هـذا الفيلـم لم يعرض على نطاق واسع في العراق.

القبض على"ليلة سفر»

وحول السبب الحقيقي لمنع فيلمه"ليلة سفر"من العرض الجماهـيري يعتقـد المخـرج بسّام الـوردي"كان هنـاك سببـان أحدهمـا، ظاهـري والآخر حقيقي. فالسبب الظاهري هو أن إحدى الممثـلات في الفيلم كانت قد غـادرت العراق بعد إتمـام العمل، ملتحقـة بالمعارضـة العراقية. أما السبـب الحـقيقي فهـو– بحسـب تقديـري– إن الفيلم باللغـة السينمائية التي اعتمدتها فيه كان قـد وضع عديد الأفـلام العراقية، المكلفـة إنتاجاً إلى حـدّ البـذخ، على المحـك، مقارنة بفيلـم أنتج بموازنـة هزيلـة»، مستدركاً"بعد هـذا الفيلم لم تنتج"دائـرة السينما والمسرح"غـير فيلم واحد هو"الملـك غازي"الـذي أخرجـه الفنـان محمـد شكـري جميل، وكان انتاجـه بتوجيه من جهات عليـا في الدولـة. فالموقـف لم يكن فردياً، وإنما كان توقفـاً جماعياً بفعل الظـروف القاسية التي عشناها».

إفقار الحياة السينمائية العراقية

وعلى الرغم من البنية الشاعرية لعموم تجربة الوردي وثقافته، إلا أنـه صاحب رؤية واقعية حيـال متطلبات الإنتـاج السينمائـي، فهو رداً علـى سؤال"هل ترى أن العمـل السينمائي في العراق يمكـن أن يُستأنف علـى أسس جديدة، وبوتائـر أكـبر وأشمل وأوسـع؟»، يوضّح"ما نحتاجـه، أولاً، هـو رأس المال الـلازم لمثل هذا الانتـاج. تشجيـع رأس المال علـى التوجه إلى مثل هذا القطاع الاستثماري» والذي لا أعتقده متيسّـراً الآن في شكل مرضٍ. فإذا ما علمنا أن الاستثمـار في هذا المجال بطيء الربح، وجدنا أن"مـن يملكون"يبحثـون اليـوم عـن الربـح السريع، ذلك أن همّهم مالي، وليس ثقافياً – أما أن تتبنى الدولة مثل هـذا العمل، لأسباب فنية وتربوية وأخلاقية وسياسية وذلك بدعم رأس المـال الخاص، فإن ذلك إذا ما تم – قد يفتح أمام السينمائيـين العراقيين بابـاً – وان كان سيظل موارباً، كما أعتقد».

وكان الـوردي يرسم صورة واقعيـة للشاشة الكبيـرة في بلاده: "التوقـف الـذي حصـل في العمـل في مجـالات السينمـا في السنـوات الأخـيرة، وهجـرة الفنانـين، والتـآكل، وعدم توالـد أجيـال جديـدة، كل ذلـك أدى إلى إفقار الحيـاة السينمائيـة العراقيـة مـن عنصرهـا البشـري. هنـاك أشخاص درسـوا في الخارج واكتسبوا خبرات جديدة، وهم لا يزالون هناك. فإذا ما شاركت تلـك الخبرات نظيرها الموجود في الداخل قد تحقق بعض التعويض».

أمـل الـوردي ورجـاؤه دُفنا معـه في صمـت وخـوف مديـد، فقـد رحل يـوم كانـت الحرب الأهلية تمزّق بـلاده، وكادت تجعلها أقرب إلى قبر فسيح.

بسّـام الوردي لملم السنين على عجل وبعثرني في مكانها

يحيى الشيخ

كنت أتكئ على سياج الحديقة مزهواً بوجودي في أيامي الأولى في أكاديمية الفنون جميلة العليا في بغداد، ذلك في تشرين الأول من عام ٦٢. مشمسة وواسعة كانت الحديقة تنحدر صوب النهر، في العيواضية. بجواري كان يقف صديقي وابن مدينتي شاكر حمد، قريب منا كان بعض الطلبة يتحدثون في جملة مواضيع في آن واحد. تقدّم منا طالب وردي اللون ممتلئ الوجه، ناعم، يئم عن عافية ودلال، بثقة زعزعت استرخائي، مد يده مبتسماً وقال: هل أنت يحيي الشيخ.... ممكن سؤال؟ وتنحى بي جانباً وهمس في أذني: وصل ترحيلك يا يوسف.

بعد أيام وجدتني وبسّام الوردي في كل مكان. كان أكثرها إثارة وإحراجاً زيارتي معه الى أحد بيوت آل الوردي، اعتقده كان في العطيفية. كان يحج بأهله: فتيان وبنات، نساء ورجال تهت بينهم، وكنت أعتقد أن كل العيون كانت ترصدني، فصعب عليّ ابتلاع لقمتي، ويبدو أن بسّام لمس حرجي واضطرابي فأخذني الى بيت قريب لهم، كان مرسم الفنان هاشم الورد ومتحف مقتنياته، وكان أول مرسم خاص أدخله في حياتي. شاهدت هناك عشرات اللوحات والتماثيل والمسابح الثمينة وقطع الأثاث النادرة وبعض المخطوطات. من خلال صحبتنا عرّفني على شعر مظفر النواب، وكنت أول مرة أسمع به، كان يحفظه على ظهر قلب ويرزح تحت سطوته.. وأعتقد بسبب ذلك تلكأ بسّام في المضي الى كتابة الشعر الشعبي، فكان ينظمه من وقت الى آخر. من تلك الأيام أخذ بسّام ينغرس في حياتي وفي أكثر المواضع حساسية وخصباً. وقع انقلاب شباط عام ٦٣، حينها كنت في العمارة لقضاء العطلة الشتوية مع أهلي.

عدت الى بغداد في بداية آذار. لم يكن بسّام في الأكاديمية ولا أنور الغساني ولا هاشم سمرجي ولا ودود، كما أن نوفير "الأرمنية" قطعت الدراسة وقررت الهجرة (كل هذه الأسماء غادرت العراق إلا بسّام الوردي الذي اصطفى العيش والموت فيه). ألغيت الأكاديمية وسميت: أكاديمية الفنون الجميلة الملغاة، وتم الابقاء على طلبة الدورة الأولى والثانية حتى التخرج، ونقلت الى بناية معهد الفنون الجميلة. تأكد لي أن غياب بسّام والأخرين يعني إلقاء القبض عليهم. بعد أيام قليلة كنت في قاعة درس التخطيط. أستاذنا البولوني رومان ارتموفسكي ذو القامة الطويلة النحيلة كان يتفقد رسومات الطلبة. طرق زميل لي، من الدورة السابقة، الباب وطلب الاذن بالدخول ليقتادني الى سيارة الحرس القومي عند المدخل الرئيس للمعهد. كنت مستسلماً وخاوياً إلا من قشعريرة كانت تقوضني، تفرد مفاصلي وتطويني على سؤال لاذع: من أبلغ عني؟ لقد خرجت من العمارة سالماً فكل من كان لي صلة بهم اختفوا أو فرّوا الى ايران، ولا يعرفني في بغداد إلا اثنان بسّام الوردي وهاشم!!!

قضيت ثلاثة أيام في موقف السراي وسيق بيّ بعدها الى الموقف العام في باب المعظم. كان صباحاً ربيعياً مشمساً لم يزل ينطوي على بقايا برد الشتاء القاسي الذي حلّ ذلك العام... أدخلني الشرطي القلعة السادسة وأغلق الباب خلفي. حتى يحيط المرء بعينيه بأرجاء القلعة وباحتها المنقسمة نصفين، يستغرق ذلك وقتاً محسوباً، تبدد بفعل صيحة بسّام من وسط الموقوفين في أقصى الساحة، فعند كل موجة ترحيل من والى يتجمهر السجناء لمعرفة منّ القادم أو منّ المغادر! بين ذراعيه عثرت على معنى دافئ للصداقة وعلى مبرر موضوعي لحالتي، وكانت نظراتي كافية ليجيبني أنه لم يبلغ عني وكذلك هاشم الذي تم ترحيله الى الموصل. كي تصل الى روح بسّام الوردي لا تحتاج الى وسائط، فأنت تجده قد وصلك قبلك، وهو يتشكّل بسلاسة الى نظير لك يندمج فيك ويختفي في طيات وجدانك. كنت أعثر عليه مرة في أعماقي ينبش أوجاعي أو أمامي يشير الى ما أنوي إليه. كان يخترقني كالضوء وما كان مني إلا أن أكون أكثر شفافية لأنعم برفقته. غالباً ما كنت أحلق الى خارج القلعة السادسة جناحاي كانا هو وسعدي الحديثي. كان مجلسنا أغاني مبحوحة وقصائد ونوادر وحكايات وكل ما ينفينا الى خارج السجن.... واحد من بغداد والآخر من حديثة والثالث من العمارة... ثلاثة مشاريع لثلاثة مصائر.

بعد أشهر أطلق سراحنا، بعدها بثلاث سنوات تخرجنا من الأكاديمية. رفضت الدولة تشغيلنا، فقررت مجموعة كبيرة من الخريجين السفر للتدريس في السعودية. تناثرنا في الربع الخالي وكان نصيبنا أنا وهاشم سمرجي في مدينة الدمام، أما بسّام الوردي فقد ألقي به في الهفوف، وما أدراك ما الهفوف قبل أربعين عاماً!!! لم يكن لديه غيرنا فكان يقطع مئات الأميال ليقضي بيننا ليلة أو ليلتين يبث فيهما كل عذابات الحب التي كانت تصليه. بسّام طفل ماكر كانت أيامه معنا مفعمة بالضجيج والمشاكسات وبقصائد جديدة وحكايات عن غبار الحياة في الصحراء من حوله.

وها هو يتمفصل في أدق مراحلي وأكثرها غنى. قامت الحرب في حزيران ٦٧ فأغلقت المطارات وقررنا العودة بالسيارات الى البصرة عبر الكويت. كان الحر والغبار ورطوبة البحر المحاذي ودخان السكائر والطريق اليباب يثير الأعصاب، غير أن بسّام، كما لو في رحلة مدرسية، كان يركّب الأفكار ويخلطها على هواه بطريقة خرافية، فيسرق الأخرين من أنفسهم وينزع عنهم ركود أرواحهم. بعد أن يتعب من حمل الأخرين على جناح الخيال والسخرية من الواقع، ينشد مقطعه المحبّب من قصيدة المدينة لكافافي :

"ما دمت قد خربت حياتك، في هذا الركن المهجور من العالم
فهي خراب لك أينما حللت»

يغط بعدها عميقاً ثم ينتفض لينتج عبثاً جديداً. كان شاقاً عليّ أن أحتويه لفترة طويلة على حال واحدة. كان يقلقه جريان الأيام من حوله بلا مبالاة، فيقلقني معه. كثيراً ما كنت أقسو عليه وكنت على يقين أنه كان يحبني أكثر مما كنت أحبه، وما كان يعذبني أكثر عجزي عن مجاراة روحه الوثّابة كالنبض في عروق الحياة.

عاش بسّام الوردي بروح أخرى غير الروح التي تكشفت في حياته الاعتيادية. غالباً ما كان يلامسني أثيرها... وهو يبكي حباً، وهو يقرأ الشعر، وهو يقهقه عالياً، وهو يسرح بخياله الى الأقاصي. روح لم يستنفدها بسّام وستبقى طويلاً تحوم بيننا حتى تعثر على من تسكنه يوماً ما لتكمل مشوارها الجميل. عبر ثلاثين عاماً وآلاف الأميال أعود اليها اتعكز على ذاكرة تنز مرارة لأقول لها.... سلام الله عليك يا أخي.

شخصيات في حياتي

الفنان المبدع بسّام الوردي

عامر هشام الصفار

كنتُ وما زلت من المهتمين بالمنجز الثقافي العراقي وفي مجالاته المختلفة. وأذكر جيداً وأنا في مرحلة الدراسة ما قبل الجامعية أني كنت من المواظبين على زيارة مقر أتحاد الأدباء قرب ساحة الأندلس في بغداد لمتابعة أمسيات الثقافة ولقاءات أساتذة النقد والأدب، إضافة الى متابعاتي للنتاجات المنشورة في كتب أو مجلات متخصصة أو ما تنشره الصفحات الثقافية المعنية بالقصة والشعر والنقد الأدبي والصادرة ضمن صحف بغداد آنذاك.

وعند تخرجي من كلية الطب عام ١٩٨١ ودخولي ميدان الإعلام التلفزيوني من خلال برنامج "العلم في العمل" الأسبوعي سنحت لي الفرصة بأن أزور بين فترة وأخرى بناية مصلحة السينما والمسرح وهي القريبة وقتذاك، من بناية المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون في الصالحية. وقد خطرت فكرة عندي في منتصف الثمانينيات من قرننا الماضي، في أن أكتب سيناريواً لفيلم يخص اختراعات الشباب العراقي العلمية وأدفع به لمدير السينما في المصلحة لعلّي استحصل موافقته وقتها على إنتاج فيلم وثائقي عراقي عن المخترعين الشباب. وقد كانت فرحتي كبيرة عندما علمت أن إدارة السينما قد وافقت على السيناريو المقترح وأوكلت مهمة إخراج الفيلم الوثائقي للفنان السينمائي المبدع بسّام الوردي "رحمه الله». وهكذا تعرّفت على الوردي الفنان والشاعر والمسرحي خلال فترة الأسابيع القليلة التي قضيناها معاً لمتابعة تفاصيل الفيلم والذي أنتج عراقياً وشارك في مهرجانات الأفلام الوثائقية العربية والعالمية.

والفنان الوردي الذي توفاه الله عام ٢٠٠٧ عن عمر يقرب من ٦٥ عاماً، كان من الذين يهتمون بتفاصيل أفلامه التي يخرجها محاولاً أن يرصد الفكرة العلمية التي يطرحها المخترع الشاب وينقل كل ذلك بأمانة وفن للمشاهدين. والوردي من المحسوبين نقدياً على جيل الستينيات العراقي، حيث يقول عنه الناقد ماجد السامرائي ما يلي "كان بسّام الوردي شاعراً من طراز خاص، شحيحاً في نشره ومقلاً في كلامه ولكنه يكثر من التأمل». وأذكر للوردي أفلامه الوثائقية الأخرى ومنها فيلمه عن النحات العراقي الفنان خالد الرحال، والفنان عطا صبري والفنان محمد غني حكمت، كما له فيلمه الوثائقي المعروف "حكاية للمدى" عن حياة وإبداعات الفنان العراقي يحيى جواد.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني: خالد خضير

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

في استذكار بسّام الوردي

علاء المفرجي

الرؤى مثله مثل أبناء جيله، حيث الاهتمامات المتعددة، وضغط والمكنونات الإبداعية تموج داخله، تصيّرها الموهبة إبداعات تتوزع بين القصة والمسرح والسينما والشعر والتشكيل.

ومثل أبناء جيله أيضاً، ارتهن العطاء الإبداعي لديه بثقافة موسوعية كان يرى فيها أرضاً خصبة تتجذر فيها الموهبة لتينع ثمار الإبداع.

بسّام الوردي... اسم لا تخطئه عين المتابع لمسيرة الإبداع العراقي، بما قدمه من منجز فرض حضوره القوي في المشهد الثقافي العراقي في غير جنس من أجناس الإبداع.

وإذا كان للمسرح والقصة والشعر وحتى النحت نصيب يعتد به من عطاء هذا الفنان الكبير، فإن للسينما الحكاية الأهم والنصيب الأكبر، حيث اثبت فيها أن تلك المجالات التي ولجها باقتدار لم تكن إلا اختباراً لأدواته الإبداعية لاقتحام عالمه الذي يحب السينما، والذي بقي يرنو إليه مخلصاً وعاشقاً، حتى أعاقه فراش المرض عن التواصل معه.. هذا العالم الذي كان يحرم من ولوجه، لولا تلك المصادفة القدرية بحسب تعبير (زفايج) والمتمثلة باستحداث أكاديمية الفنون الجميلة عام ١٩٦٠ ليكون من أوائل الملتحقين فيها للقاء معشوقته.. هذه المصادفة التي جعلته يترك دراسة (البايولوجي) ويتفوق في (السينما).

دخل السينما من بوابتها الأصعب، الفيلم الوثائقي والقصير، وكأنه كان مصراً على اكتمال أدواته، ويطمئن لفعلها والذي تجلّى بأفلام توافرت فيها كل عناصر الصنعة لتعتلي باقتدار منصات الفوز في غير مهرجان سينمائي، وقبل ذلك كانت قد اعتلت ذائقة النقاد والجمهور..(أغنية لشمس الصباح) وأفلام وثّقت حياة مبدعين عراقيين (عطا صبري) (محمد غني حكمت) و(خالد الرحال).. ولكن يبقى الأهم بينها (حكاية للمدى) وهو الفيلم الذي كرس منه أحد أهم أساتذة هذا الفن في العراق. و(حكاية للمدى) الذي وضع فكرته وكتب قصائده الشاعر والكاتب رياض قاسم.. رحلة في السيرة الحياتية والإبداعية للفنان والقاص (يحيى جواد).. هذا الفيلم الذي يعد بحق المنجز الأهم، لا في مسيرة الوردي فحسب، بل في تاريخ الفيلم الوثائقي في العراق، لقد كان درساً في التوثيق البصري.

من هذه البوابة دخل مجال الفيلم الروائي في (ليلة سفر) الذي ذبحه المونتاج الرقابي للمؤسسة الثقافية المقبورة، الأمر الذي سبب في حظر إطلاقه في صالات العرض، حتى كتابة هذه السطور على الرغم من زمن إنتاجه الذي تجاوز الربع قرن.

ومثل أي مبدع حقيقي كان يتردد كثيراً في اختيار نصوصه، وإن اختار فإنه يشبعها دراسة.. قال لي مرة، إن النص الذي يختاره لأي كاتب، هو النص الذي كان يتمنى أن يكتبه هو.. وكان لي أن ألمس قوله هذا مجسداً يوم جمعتني وإياه لجنة لقراءة وتقييم نصوص درامية لحساب دائرة السينما والمسرح ويومها قدمت له تقييمي أن لا نص يستحق الإنتاج، لأفاجأ بالملاحظة نفسها منه مع استدراك خصّني به من أنه قرأ النصوص وكأنها مسنودة لإخراجه هو فوجدها لا تستحق.

وإذ استعيد حياة أحد عشاق وبناة السينما العراقية، فإنّ بعضاً من الأمل يحدوني في أن ينتبه القائمون على تظاهرات السينما بمختلف مسمياتها في أن تشتمل برامجهم على استذكار رموز السينما من خلال حلقات دراسية، أو تقديم عروض لمنتجهم الإبداعي، وفي ما يتعلق بصانع سينما مثل الراحل بسّام الوردي، فعلى الأقل وتكريماً له يتم عرض فيلمه (ليلة سفر)، الذي تعرض للإجحاف والتناسي من قبل، بخاصة وأن المشاركين والشهود على صناعته مازالوا أحياءً ولهم كلمة عنه.